لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة ، والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للمال . أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فحبطت أعمالهم ، وتلك هى عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن
دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ
أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر.

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « ياأيها الذين آمنوا » فلتعلم أن ما يجيء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر فى السماء ، فكّر فى الأرض ، فكّر فى مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فَتَلَقَّ عن الإله الحُكم .

إن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف بـ « افعل » و« لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل فى حظيرة الإيمان : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان فى حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف بـ « افعل » و« لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويجيء فى بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدى أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرًا موجودا فيه ؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذى يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرًا بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهى المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام فى الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفى من الله له مقدمة هى : « ياأيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن فى علة الحكم ،

وتسأل : لماذا كلفتني يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل : « لماذا » مادمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت ـ أيها المؤمن ـ قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله بـ « افعل » و« لا تفعل » سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل ومازلنا نكرره .

إن المريض الذى يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه الهضمى مصاب بعلة ، ويفكر فى اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيبا متخصصا فى الجهاز الهضمى ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهى عمل العقل بالنسبة للمريض ؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجرى الفحص الدقيق ، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب : لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتنى بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر فى البشرية ، فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن آمنت ـ أيها المؤمن ـ بالله حكيما ، فتلقَّ عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها رياضة مثلا ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلى ، فإنك تلتفت إلى أن نفسك قد انشرحت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى راحة الإيمان ؛ هذه هى علة الحكم الإيمانى . إن علة الحكم الإيمانى يعرفها المؤمن بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقولنا لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فأنت ساعة أن تتقى الله فى الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ، إنك أيها العبد لا تسأل أولا عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكما لله ، لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلقه قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظللنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لمدة أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التى فيه ؟ تلك المضار التى ثبتت معمليا .. لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضررًا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة فى كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هى : « ياأيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بى إلها خذ منى هذا التكليف . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مُدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء . إن نزغ الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة « بطانة » جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميلهم وتستعبدهم . ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »[1] .

« والشعار » هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبى صلى الله عليه وسلم يُعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة - كما قلنا - من بطانة الثوب ، لأنها التى تلتحم بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ومُوحًى إليه وله من الصحابة ما يطمح أى عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه و أبيه سيدنا على كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أبى قل لى عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال على كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفى الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »[2] .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فقعد فقد أدى حركة هى القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هى القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

(١) رواه البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى الزكاة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، ورواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه النسائى فى الجمعة .

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهى أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذى جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هى العضلات التى تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كأن العالم الكبير قد انطوى وصار فى داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك فى مملكة جسدك ، هى من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واتتك لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات فى النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل:الحمد لله الذى ردّ علىّ روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره »[1] .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره فى كل حركة فهو الذى خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

---

(١) رواه ابن السنى .

ونعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلسَ الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولنتنبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أى أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا فى المسجد ، وهذا منهى عنه . فعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطِّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير »[1] .

ويضيف على كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك »[2] .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى فى الصلاة والنهى عن نقرة الغراب أى تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ، وافتراش السبع : هو بسط الذراعين فى السجود وعدم رفعهما ، وأن يوطن المكان : أى يلازمه فلا يصلى فى غيره .

(٢) رواه الطبرانى .

واحد فى مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنّه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : ياأيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن:هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخذوا أناسا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ لا يقصرون فى هذا أبدا ، لذلك يأتى الأمر من الحق :

ياأيها الذين آمنوا ، احموا هذا الإيمان فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا . لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون أبدا فى الكيد لكم ، والخبال:هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل « خبلا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين « ودوا ماعنتم » والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

أى أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يَسّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مُؤَمّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل ـ على سبيل المثال ـ حين ينظر إلى حلاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم فى مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسى وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ، لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تأتى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم » .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تخفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن،والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق:« قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم . إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن مَن الذى نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله - جلت قدرته - قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ؛ لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعا أبدا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل فى تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل:إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وفى مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعلم أن الآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستورا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات . والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم - أى من غير المؤمنين - وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

ومازال الحديث والكلام عن البطانة ، وهويدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا:« آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا - إذن - جاء الحق بقوله :« تحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب الحقيقى ، فهل بادلهم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدًا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العضّ لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما تراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أى أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال .

ومن أين يجيء الغيظ ؟.

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يَتبع القول المأثور :

« إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه »[1]

---

(١) هذا القول مسند إلى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على فقال : « اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ـ فصل حقوق الجوار .

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون فى بئر وحمأة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسرى التابع للغضب والعجز عن تحقيق المأرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكى فى النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجدانى لابد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أمَّا الذى لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غيظ الحليم » فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة فى قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركى . والتشريع الإسلامى لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعى غيظ الإنسان ، والذى لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربى الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة

الحسنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[1] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصمّ أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا .

وعندما يعبّر القرآن عن الإنسان السوىّ فهو لا يضع المؤمن فى قالب حديدى بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة ، ولا مطبوعا على العزة ، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية من سورة الفتح)

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا ، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنْ المؤمنين ينفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون فى مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

(١) رواه البخارى فى الجنائز ومسلم فى الفضائل . وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن فى إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون فى حقوق المسلمين ؛ وهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطىء ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمع لقول الحق :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق فى توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشُفِىَ منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبّك أحدٌ فأنت لا تسبّه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الانفعال فى القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعلى ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذى تسبب فى غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ فى المرحلة الأولى وعفوت فى المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهى التى تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لابد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذى يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق فى الطبع البشرى حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية وتحسبها بـ« منه » و« له » فستجد أنّ المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربٍّ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أتحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس فى قلبه ضغينة بينما الكافر يغلى من الحقد ، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

و« خلوا » المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا فى مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر ـ عض الأنامل من الغيظ ـ فى غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًا للمؤمنين يقول الخافىَ من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » وهنا ينبغى أنْ نفهم أنَّ هناك أمرًا قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلىء بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشىء ليس فى اختياره ـ لأن الموت ليس فى اختيارهم ـ وأن يختار بينه وبين شىء فى اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذى يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون فى حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون فى حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفى هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التى

تطرأ على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة آل عمران)

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والقرآن كلام الله وله ـ سبحانه ـ الطلاقة التامة والغنى الكامل ، والعبارات فى المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . . إنه هو سبحانه الذى قال :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه جل وعلا يتكلم عن المس فى الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان كإصابة فى الخير أو فى الشر ، وفى الآية التى نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا فى الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إنه لم يورد الأمر كله مسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما نتمعن فى المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و« الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة بمعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس ، فإذا مس الرجل امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس ، والأمر ليس أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهى التقاء وزيادة ؛ فالذى يضرب واحدا صفعة فإنه قد يورم صدغه ، فالكف يلتقى بالخد ، ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول الحق : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من الخير .. وفى حياتنا اليومية نجد من يمتلىء غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أى خير يأتى للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أمر السيئة ؟

إن الحق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأي سوء يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما :

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

يعني حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحما له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلمّا تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ . لا ، كان أهل الكفر يفرحون فى أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أى خير للمؤمنين يحزنون فالحق يقول : « أن تمسسكم حسنة تسؤهم » والحسنة هى أى خير يمسهم مساً خفيفاً ، « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ، فأنت مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرّهم ، وتصبر على فرحهم فى المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون عندك مناعة ؛ وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله فى جانبك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .
وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبيت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوى فى الإنسان ، إذا أصابه شيء أعيى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أى توصل إلى نقطة القوة فى الموضوع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبييت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً

يبيت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذى لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدلك على أنه عالم بكل شىء . والإحاطة : تعنى ألا تشرد حاجة منه . وها هى ذى تجربة واقعية فى تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكدا : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

إنه فى هذه المرة ـ فى غزوة أحد ـ جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعمائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه فى قوله : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » وليس المقصود هنا الكيد التبييتى بل عملهم العلنى ، أى واذكر صدق هذه القضية :

« وإذْ غدوت من أهلك » ، والغدوة هى : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها فى هذا الوقت الذى أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبوسفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسيل الحزن ، أو ذوب المواجيد ، فساعة يبكى إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنت النساء وبكين على قتلى بدر لهبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو سفيان : قل لهن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ فى مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثأر . وفعلا اجتمع معسكر الكفر فى ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبى بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة ، فقال عبدالله بن أبى بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا نخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغى لنبى لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل »[1].

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذى يُذَكِّرُ به القرآن صدقا للقضية التى جاءت فى الآية السابقة : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

---

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبرانى بنحوه ، واللأمة : هى الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(الآية ١٢١ سورة آل عمران)

و« تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال ، وبوأت فلانا يعنى : وطنته فى مكان يبوء إليه أى يرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كرّ وفرّ وقيام ، والذى يحارب يثبته الله فى المعركة ، فكأنه مُوَطَّنٌ فى الميدان ، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى ثبّته وبوّأته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيمانى سيكون رهناً به .

إذن فقوله : « وإذْ غدوت من أهلك تبوىء » أى توطن « المؤمنين » وتقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ؛ وأمّر عليهم « عبدالله بن جبير » وهم يومئذ خمسون رجلا وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »[1] .

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

---

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم فى أُحد . ونقول : لا ، إن الإسلام انتصر.ولو أن المسلمين انتصروا فى « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينما هبت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا فى الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلىّ عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخى لمعركة أُحد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه فى غزوة أحد إلى الخروج فى طلب العدو ، وأدركوهم فى حمراء الأسد وفرّ الكافرون . إنّ الله أراد أن يعطى المؤمنين درساً فى التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذى يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع عليم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال ، وسبحانه « عليم » بما يكون فى النيات ؛ لأن المسألة فى الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ

﴿ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « وبنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا فى الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبدالله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا فى التراجع .

وما معنى « الهمّ » هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير فى مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذى حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقى فى نظرته إلى الإنسان ، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » .

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرنى أنى لم أهم - أى لقد انشرح قلبى لأنى هممت - لأنى ضمنت أنى من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبى ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أُحد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة فى العدد والعُدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش فى العِير تعويضاً لأموالهم التى تركوها فى مكة . ومع ذلك شاء الله ألاّ يواجهوا العِير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربّى المهابة للمسلمين فى قلوب خصومهم ، فإنه قد جمّع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رءوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يُريدون أن يظل الحزن مكبوتاً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التى يحبون أن تظل مؤججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العِير الذى نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أُحُد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يُرَدّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نمى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحابته إليهم ، فبلغ أبا سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة فى الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع فى الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السويق » لأنهم تركوا طعامهم من السويق . كما حاول بعض الكفار أن يُغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شتت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يُريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل فى بلدهم وفى معسكرهم وقتا ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أُحُد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أُحُد ، وكان ما كان ، والآيات التى تعالج هذه الغزوة فيها إيحاءات بما جاء فى المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات فى تلك المواقع لكن بعضا من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر همّ بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلت فى هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « ببدر » وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة عير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوتيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لابد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولابد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك سيجيء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة في كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادةً يكون الجو معهم رخاءً . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبيّ ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحص المؤمنين . والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، أما التمييز فيأتي في شيئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمحيص يأتي للمؤمن ويعركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة في التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوي عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية في أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطي دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدي كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفذت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرّوا أولاً مع ابن أبيّ ، وما كانوا من الطائفة التي

همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك تأتي لقطة أخرى وهي ألا نفتن في أحد من البشر ، فخالد بن الوليد بطل معسكر الكفر في أُحد ، وهو الذي استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ، ألم يكن في غزوة الخندق ؟ لقد كان في غزوة الخندق . وكان في غزوات كثيرة غيرها مع جند الشرك ، فأين كانت عبقريته في هذه الغزوات ؟ . .

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد في معركة الخندق ، لقد ظهر دوره في معركة أُحد ؛ لأن المقابلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا في حضن المنهج الإلهي في التوجيه لما استطاعت عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخي لكل العسكريين الذين درسوا معركة أُحد قالوا : لا هزيمة للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضي أن يُجلي فريق فريقاً عن أرض المعركة ، ويظل الفريق الغالب في أرض المعركة . فهل قريش ظلت في أرض المعركة أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحي لأن

يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا فى أرض المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل:إن المعركة ماعت . وظل المسلمون فى أرض المعركة .

وهنا تتجلّى البطولة الحقة ؛ لأننا كما قلنا فى حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يُبْلِ فى المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأطىء ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة . ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وتأتى حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قُتل .

وكل هذا هو من التمحيص ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذى يؤتمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه « سعد بن الربيع » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « مَن رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أُبىّ بن كعب : فذهبت لأتحسسه ، فرأيته وقد طُعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تجدك ـ أى كيف حالك ـ ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خَلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُثخن فى المعركة فلم يقو على أن يحارب

بنصاله[1] ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دوياً فى آذان المسلمين . وليعلم أن هؤلاء الذين أثخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه ذاهب إلى الجنة . وتلك هى الغاية التى يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهمْ القرآن فى أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعارك ! فمثلا عمرو بن الجموح ؛ كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة مثل الأسْد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بَنىَّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألاّ تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابنى الذى استشهد ببدر رأيته فى الرؤيا يقول لى : « يا أبت أقبل علينا » فأرجو أن تأذن لى بالقتال فى « أُحد » فأذن له فقاتل فقُتل فصار شهيداً .

وتتجلّى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامى فى حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه شيخاً كبيرا مسلما فأخذ سيفه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه الشهادة فى سبيل الله ، فدخل فى المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

(١) النِّصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والسهم والرمح والسكين .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبى والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدى ديته ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التى دارت فى المعركة تدلنا على أن غزوة أُحُد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعلوها فى الأرض . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذى يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعُدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريده الحق توجيها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتى لمُستقبل لمدد الله ، ولا يأتى المدد لغير مستقبل لمدد الله .

ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شىء والقابل للانفعال بالفعل شىء آخر . وضربنا لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاى تأتى لتشرب منه فتجده ساخناً فتنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتنفخ فيها لتدفأ ، إنك تنفخ مرة لتبرد كوب الشاى ، ومرة تنفخ لتدفىء يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافخ ، ولكن القابل للانفعال شىء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لخرّت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،